مجمع نيقية: نهاية أم بداية؟

القس مدحت فايز [1]

مقدمة

ربما ليس في تاريخ الكنيسة حدث أكثر شهرة من المجمع المسكوني الأول في نيقية عام 325م، تلك اللحظة التي استطاعت فيها الكنيسة، بمعونة الروح القدس، أن تتأمل في أساس إيمانها، وأن تتناقش وتجادل، وتصدر إقرارا حفظ الإيمان المسيحي، وأصبح أرضية راسخة لكل النقاشات اللاهوتية اللاحقة. لذلك، ونحن نحتفل اليوم بذكرى مرور 1700 عام على هذا الحدث، ندرك أن مجمع نيقية لا يزال يمثل أساسًا للكنيسة الجامعة المقدسة الرسولية الواحدة، كما يمثل إقرار إيمان نيقية إطارًا لاهوتيًّا تتفق عليه الكنائس على اختلاف عقائدها وطوائفها. ولهذا، فهناك قيمة عظمى في الاقتراب من تاريخ هذا المجمع ومحاولة فهمه بطريقة أدق وأعمق، لعل ذلك يكون سببًا في مساعدتنا على التعامل مع قضايانا اللاهوتية المعاصرة، بالإضافة إلى أنه يساعدنا على بناء جسور بين الطوائف المسيحية المختلفة وخلق إطار لاهوتي مسكوني حقيقي.

والسبيل أمامنا للاقتراب من مجمع نيقية هو أن نفهمه في ضوء الخلفية اللاهوتيّة والتاريخيّة والسياسيّة للمسيحيين في القرن الرابع. فقد مثّل الربع الأوّل من القرن الرابع الميلادي نقطة تحوّل كبيرة في حياة الكنيسة.

---

[1] القس مدحت فايز، مدرّس بكلية اللاهوت الإنجيليّة في القاهرة، باحث دكتوراه في جامعة فوردهام (بنيويورك).

فبعد أن بدأ القرن الرابع باضطهاد شديد للكنيسة على يد الإمبراطور دقلديانوس، فيما يُعرف باسم "الاضطهاد الكبير" (303–311م)، والذي عزم فيه دقلديانوس على القضاء التام على الكنيسة، فدمّر المباني الكنسيّة، وأحرق الكتب المقدّسة، وسجن وقتل الأساقفة–جاء الإمبراطور قسطنطين ليعلن بداية عصر جديد للكنيسة. وقد بدأ ذلك العصر بمرسوم ميلان عام 313م، الذي أعلن فيه الإمبراطور قبول المسيحيّة ديانةً قانونيّة، وأعاد الممتلكات المصادَرة إلى الكنيسة، وأطلق سراح الأساقفة من السجون.

ولذلك، لم يكن المسيحيون يتصوّرون أنّه بعد سنوات قليلة ستواجه الكنيسة تهديدًا أشدّ خطورة من تهديدات الأباطرة، وحربًا أكثر ضراوة من الاضطهاد، مما ستسبب في اضطراب الكنيسة في كل العالم لمدة تزيد على نصف قرن؛ فقد كان التهديد هذه المرة من داخل الكنيسة نفسها، إذ اندلعت الحرب بين الأساقفة بعضهم مع بعض بسبب الجدال المعروف باسم "الهرطقة الأريوسيّة".

1- بداية الصراع مع أريوس

تبدأ المرحلة الأولى من الجدل على يد أريوس، وهو كاهن ليبيّ الأصل كان مسؤولًا عن كنيسة في حي بوكاليس بالإسكندرية القديمة في مصر. وبحسب رواية أبيفانيوس، فقد عُيِّن أريوس في منصبه في زمن البابا بطرس، الذي استُشهد في الاضطهاد عام 311م. ويقول أبيفانيوس إن أريوس عُرف برقة أسلوبه في الكلام، مما جعله مقنعًا وجاذبًا للسامعين، وكان مسؤولًا عن تفسير الكتاب المقدس في كنيسته (The Panarion of

.(Epiphanius of Salamis, 3.1 ويقترح روان وليامز أنه من خلال المصادر التاريخية يمكن تتبّع نشاط أريوس العلني إلى ما قبل عام 313م، وأنه كان نشطًا في الخدمة في الإسكندرية لمدة عقد قبل بداية الخلاف (Rowan Williams, *Arius: Heresy and Tradition*, 32).

يرجّح الباحثون أن الخلاف بدأ رسميًّا عام 318م، وتمحور الجدال حول الصياغة اللاهوتية الصحيحة لوصف طبيعة أقنوم الابن وعلاقته بالله الآب. كان هناك مجموعتان رئيسيتان في هذا الجدل: مجموعة تناصر أريوس، ومجموعة تتبع البابا ألكسندروس، أسقف الإسكندرية في ذلك الوقت. وقبل أن نناقش آراء أريوس اللاهوتية، يجب أن ننظر إلى الوضع الكنسي داخل الإسكندرية في ذلك الوقت. فإذا أخذنا رواية أبيفانيوس على محمل الجد، فإن أريوس كان له أتباع كثيرون؛ إذ نجح "في جذب سبعين عذراء من الكنيسة دفعة واحدة، كما استمال سبعة من القسوس واثني عشر شماسًا" .(Epiphanius of Salamis, 3.1) وفي خطابه الأول للأسقف ألكسندروس، يضع أريوس قائمة بالكهنة والشمامسة والأساقفة الذين يساندون موقفه اللاهوتي (خطاب أريوس إلى البابا ألكسندروس، 6). كما أن أريوس كان قادرًا على صياغة أفكاره اللاهوتية في صورة أشعار وأناشيد وترانيم حققت له شعبية بين عامة المسيحيين. وبغضّ النظر عن عدد التابعين لأريوس، فمن الواضح أنه استطاع جذب عدد كافٍ جعل الخلاف يتحوّل إلى تهديد حقيقي لوحدة الكنيسة في الإسكندرية.

أفكار أريوس

ما هي إذًا تعاليم أريوس التي كانت شرارة اشتعال هذا الجدل؟ لقد تم التخلّص من معظم كتابات أريوس، ولذلك يعتمد الدارسون فقط على الخطابات التي كتبها، والتي، على الرغم من قلتها، إلا أنها كافية لتعطينا فكرة واضحة عن أفكاره. ففي خطابه إلى يوسابيوس أسقف نيقوميديا، يشرح أريوس عقيدته عن أقنوم الابن، فيقول: "الابن ليس أزليًّا (غير مولود)، ولا يُعتبر جزءًا من الله الأزلي... لكنه موجود بمشيئة وإرادة الله قبل الأزمنة والدهور، مملوء من الحق والنعمة، إله، الابن الوحيد غير المتغيّر. وقبل أن يولد أو يُخلق لم يكن موجودًا، لأنه غير أزلي. فالابن له بداية، بينما الله ليس له بداية" (خطاب أريوس إلى أوسابيوس 3–4). يبدو من نص الخطاب أن النقطة الأساسية التي يهمّ أريوس الحفاظ عليها هي وحدانية الله وفردانيته. وفي خطابه إلى ألكسندروس، يصف أريوس الله بهذه الكلمات: "نُقِرّ بإلهٍ واحد، وحده غير مولود، وحده سرمدي، وحده بلا بداية، وحده الإله الحق، وحده الذي له عدم الموت، وحده الحكيم، وحده الصالح، وحده السيد، الديّان على الجميع، الحاكم والمدبّر، الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل، العادل والصالح، إله الناموس والأنبياء والعهد الجديد". بينما يؤمن أن الابن: "ليس أزليًّا، ولا مساوٍ للآب في الأزلية، ولا شريكًا له في عدم الولادة، كما أنه لا يشترك مع الآب في الوجود" (خطاب أريوس إلى ألكسندروس 2–4).

فالله، وفق فهم أريوس، هو الكائن الوحيد الأزلي (الذي ليس له بداية)، البسيط، غير المركب، وغير القابل للتجزئة أو الانقسام. وهو أيضًا الكائن الوحيد الحر بشكل كامل، وهو وحده مصدر كل شيء. وبالتالي، فإن التعليم بأن الابن أيضًا كائن منذ الأزل يعني، إما أن هناك إلهين، أو أن الله غير بسيط ويمكن أن ينقسم إلى جزأين: أب وابن. وعليه، اعتقد أريوس أنه لا يمكن التعليم بأن الابن غير مخلوق، بل هو مخلوق قبل كل الدهور، ومخلوق بإرادة الله. وقد استخدم أريوس الجملة الشهيرة: **"كان هناك وقت لم يكن الابن موجودًا فيه"** كشعار للاهوته.

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن كثيرين يعتقدون أن هرطقة أريوس كانت في تعليمه بأن الرب يسوع ليس إلهًا، وإنما هو مجرد إنسان مثل باقي البشر، وقد اختاره الله لينقل رسالته، شأنه شأن باقي الأنبياء. وقد انتشرت هذه الفكرة بشكل خاص بعد نشر روايات مثل عزازيل للكاتب يوسف زيدان، وشفرة دافنشي لدان براون. إلا أن القراءة الدقيقة لأفكار أريوس تؤكد أنه لم يدّعِ أن يسوع هو مجرد إنسان، بل اعتقد أن للابن مكانة متوسّطة بين الله والخليقة: "فهو مخلوق، لكن ليس كواحد من الخليقة"، بل يصفه بأنه "خليقة الله الكاملة" (خطاب أريوس إلى ألكسندروس، 2.) ويشرح خالد أنطونيوس أنه حتى لو أقرّ أريوس بوجود الثالوث في طبيعة الله، فإنّه بالنسبة له يوجد جوهر أو أقنوم واحد منهم يمثّل الله بشكل كامل وحقيقي، وأن الوحدة بين الأقانيم الثلاثة هي وحدة في الإرادة، وليست وحدة في الجوهر. وبناءً على ذلك، يمكن الجمع بين ألوهية الابن، وفي

الوقت نفسه التأكيد على وجود اختلاف في درجة الألوهية بين الأقانيم الثلاثة (Anatolios, Khaled. *Retrieving Nicaea: The Development and Meaning of Trinitarian Doctrine*, 48)

تفسير الكتاب المقدس

قبل الخوض في تفاصيل المجمع من المهم أن ندرك العلاقة بين هذا الجدال والكتاب المقدس؛ لأن الهرمنيوطيقا (علم التفسير) من أهمِّ المفاتيح لفهم طبيعة وأصل هذا الجدل اللاهوتي، ولا سيَّما فيما يتعلَّق بكيفية تفسير الكتاب المقدَّس. ويرجِّح كثيرٌ من الباحثين أنَّ المشكلة بين أريوس وألكسندروس كانت، في جوهرها، مشكلةً تفسيرية. ويتَّضح ذلك على وجه الخصوص إذا علمنا أنَّ أريوس كان مسؤولًا عن تفسير نصوص الكتاب المقدَّس في الكنيسة. ففي قلب الصراع كانت تكمن إشكاليةٌ حول كيفية التعامل مع النصوص الكتابية التي تشير إلى المسيح بصفاتٍ بشرية؛ إذ لم يقبل أريوس أن يكون الابن –الذي تجسَّد، ووُلِد، وجاع، وعطش، وتعب، وصُلِب، ومات– في ذات مرتبة الألوهية مع الله، الذي هو بلا جسد، ولا يتعب، ولا يكل، ولا يموت. ومن أكثر النصوص التي استُخدمت في ذلك السياق ما ورد في سفر الأمثال 8: 22: "الرَّبُّ قَنَانِي أَوَّلَ طَرِيقِهِ، مِنْ قَبْلِ أَعْمَالِهِ، مُنْذُ الْقِدَمِ". ولعلَّ القارئ المعاصر يتعجَّب من كون هذا النص سببًا في جدلٍ لاهوتيٍّ كبير حول الثالوث الأقدس وعلاقة الابن بالآب. غير أنَّه في الكنيسة المبكرة، كان هناك تقليدٌ راسخ يرى أنَّ نصوص

الحكمة في سفر الأمثال، ولا سيَّما التي تُشخَّص "الحكمة"، تشير إلى الأقنوم الثاني، أي الابن. وتكمن الإشكالية التفسيرية هنا في فعل "قَنَانِي"، الذي تُرجم في النسخة السبعينية إلى الفعل اليوناني ἔκτισέν (خلقني). وبالنسبة لأريوس وأتباعه، فإنَّ استخدام هذا الفعل يعني بالضرورة أنَّ الابن مخلوق، أي أنَّه أوَّل خليقة الله، وبالتالي لا يمكن أن يكون مساويًا لله في الجوهر؛ إذ لا يمكن، بحسب منطقهم، أن يتساوى الخالق مع المخلوق.) ,Young , 107.).Frances M. *Exegesis and Theology in Early Christianity*

وقد أدرك أنصار نيقية خطورة هذا التحدي، فاجتهد القديس أثناسيوس الرسولي، خليفة البابا ألكسندروس على كرسي الإسكندرية، في دحض التفسيرات الأريوسية للنصوص الكتابية وتقديم تفسير أرثوذكسي لها. ويقول في رسالته الأولى ضد الأريوسيين: "لكن بما أنهم يتعلّلون بالأقوال الإلهية، ويفرضون عليها تفسيرًا منحرفًا، محرّفين إياها بحسب فكرهم الخاص، صار من الضروري أن نرد عليهم لكي تُثبَت صحة الأقوال الإلهية، ونُظهر أنها تحوي الفكر المستقيم، بينما أولئك يفكرون تفكيرًا ضالًّا" (أثناسيوس، المقالة الأولى ضد الأريوسيين، 37). وكانت الاستراتيجية الأساسية لأثناسيوس هي ما يُسمّى بـ"التفسير الجزئي"، أي اعتبار النصوص محل الجدل إشارة إلى المسيح المتجسد، لا إلى جوهر طبيعته الإلهية في ذاته. فعلى سبيل المثال، يرى أن الفعل "قناني" في سفر الأمثال 8: 22، يشير إلى التجسد، لا إلى كينونة الابن الأزلية، إذ يقول في تفسيره لهذا النص: "لأن الكلمة هنا لم يتحدث من خلال سليمان مشيرًا إلى جوهر الألوهة، ولا إلى ميلاده الأزلي والحقيقي

من الآب، بل يشير إلى ناسوته وعمل تدبير خلاصنا". وخلاصة الأمر أن هذه النصوص كلّها تشير إلى حدث التجسد، كما قال أثناسيوس: "فلو لم يكن قد صار إنسانًا، لما كانت هذه الأقوال تُقال عنه" (أثناسيوس، المقالة الثانية ضد الأريوسيين،44).

في عام 319–320م، عَقَدَ ألكسندروس مجمعًا محليًّا في الإسكندرية بحضور نحو مئة أسقف من مصر وليبيا. وقد تمسّك المجمع بتعليم البابا ألكسندروس ورفض تعاليم أريوس وأتباعه، وعزلهم من الكنيسة. وعلى الرغم من أن مجمع الإسكندرية كان حاسمًا في الوقوف ضد أريوس وتعاليمه، إلا أنه لم ينجح في إنهاء الجدل. فاستمر أريوس وأتباعه في نشر أفكارهم في الإسكندرية وخارجها. وهناك عدة أسباب ساهمت في استمرار الجدل منها:

1. يبدو أن سلطة بابا الإسكندرية على الكنيسة في مصر وليبيا لم تكن قد ثبتت بنفس القوة التي ستتحقق لاحقًا على يد خلفائه من الباباوات أثناسيوس، وثاوفيلوس، وكيرلس في القرنين الرابع والخامس. يوضح الأب جون بيير أن المجتمع الكنسي في مصر كان لا يزال يعاني من الانشقاق المليتي، الذي بدأ بين البابا بطرس والأسقف مليتوس من ليكوبوليس (أسيوط). ويعتقد بعض الدارسين أن أريوس قد انضم إلى مليتوس لدعم موقفه اللاهوتي. كما كان هناك صراع بين أسقف الإسكندرية والكهنة داخل المدينة،

حيث حاول بعضهم التصرف باستقلالية عن البابا. (Behr, John. *The Nicene Faith: Formation of Christian Theology, Volume 2*. (62. , وربما كان القانون السادس من قائمة القوانين الملحقة بمجمع نيقية، والذي ينص على الإقرار قانونيًّا بالتقليد القديم المتعلق بسيادة أسقف الإسكندرية على مناطق مصر وليبيا والمدن الخمسة، قد وُضع خصيصًا لمساعدة كنيسة الإسكندرية على مواجهة هذا الأمر. (قوانين نيقية، 6).

2. السبب الثاني، والأهم، هو أن أريوس كان قادرًا على التواصل مع مجموعة من الأسماء المهمة والمؤثرة في المشهد الكنسي في ذلك الوقت، وعلى رأسهم يوسابيوس أسقف نيكوميديا وآخرون. الذين إما دعموا موقفه اللاهوتي مباشرةً، أو لم يكونوا مقتنعين بموقف الإسكندرية بشكل كافٍ. ولذلك، ما بدأ جدلًا محليًّا تحوّل إلى جدل عام في الإمبراطورية كلها، وخاصة في الجزء الشرقي منها.

3. السبب الثالث هو تدخل الإمبراطور قسطنطين في الأمر؛ فمنذ أن أصبح قسطنطين الإمبراطور الأوحد على الإمبراطورية الرومانية، أولى اهتمامًا خاصًّا بالمسيحية، ورأى أن من واجبه التدخل للتوصل إلى حل لهذا الصراع. كان هدف الإمبراطور الأساسي الحفاظ على وحدة الكنيسة في الإمبراطورية، وما قد تحققه هذه الوحدة من سلام واستقرار سياسي. من ناحية أخرى، لم يفهم قسطنطين أهمية الخلاف

اللاهوتي بين أريوس وألكسندروس، فأرسل لهما خطابًا عام 324م موضحًا أنه يرى هذا الخلاف "بلا أهمية ولا يستحق هذا الصراع العنيف"، واعتبره مجرد "خلاف لغوي أحمق"، ورأى أنه من الأفضل عدم الدخول في هذا النوع من "الأسئلة المتهورة"، وبالتأكيد لا يجب أن توضع أمام العامة غير المتخصصين في اللاهوت. (خطاب قنسطنطين إلى ألكسندروس وأريوس، 4–6). ثم أرسل قسطنطين هوسيوس أسقف قرطبة إلى الإسكندرية كوسيط للوصول إلى حل سلمي.

الدعوة لمجمع نيقية

عندما فشلت وساطة الإمبراطور في تحقيق هدفها، لم يجد الإمبراطور بدًّا من الدعوة إلى مجمع للأساقفة من كل أنحاء الإمبراطورية لحسم الخلاف بشكل نهائي. ولا بد للقارئ أن يدرك أن فكرة المجامع اللاهوتية لم تكن مبتدعة في تاريخ الكنيسة الأولى؛ فقد نظّمت الكنيسة منذ نشأتها مئات المجامع على المستويين المحلي والدولي. وربما يكمن الفرق الوحيد هنا في أن الدعوة إلى المجمع جاءت من الإمبراطور شخصيًّا، ووجّهت لكل الأساقفة من كل ربوع الإمبراطورية، وهذا ما جعل نيقية المجمع المسكوني الأول. وهناك بعض الملاحظات الهامة التي يجب طرحها قبل مناقشة نتائج المجمع:

1. كان مجمع نيقية البداية الأولى للشكل الجديد والمعقّد لعلاقة الإمبراطورية بالكنيسة. فقد أصبح قسطنطين الإمبراطور الأوحد على كل الإمبراطورية الرومانية عام 324م، وبالتالي، بدعوته لمجمع نيقية عام 325م، أكد على سلطته الروحية بصفته ممثلًا لله على الأرض، ليس فقط في الأمور المادية، بل أيضًا في الأمور الروحية. وكان قسطنطين نفسه حاضرًا في الجلسة الافتتاحية في 20 مايو 325م. ويصف يوسابيوس المؤرخ الكنسي، الذي كان شاهد عيان على فعاليات المجمع، قسطنطين وكأنه ملاك سماوي من الله، داخلًا للمجمع كمحارب وكان يجلس على كرسي ذهبي في وسط الأساقفة. (Eusebius, Life of Constantine, 3.10). وعلى الرغم من إعلان قسطنطين أنه لن يتدخل في قرارات المجمع، إلا أنه كان بالتأكيد مؤثرًا فيها. ومن الناحية العملية، اختبر الأساقفة لأول مرة مباركة الإمبراطورية، إذ أرسل لهم الإمبراطور العربات والخيول لنقلهم إلى مقر المجمع، واستقبلهم في قصره وأغدق عليهم الهدايا. يصف الدكتور القس حنا الخضري مشهد الأساقفة قائلًا: "وكم كان المنظر غريبًا وعجيبًا ومدهشًا، بل مؤثرًا للغاية عندما اجتمع هؤلاء الأساقفة، وكان يعرض بعضهم على بعض التشوهات الجسدية، وآثار الجروح والضربات والجلدات التي تركتها فترة الاضطهادات العنيفة القاسية. والآن كل شيء قد تغيَّر بل إن الإمبراطور نفسه حاضر معهم يأمر جيشه بحراستهم والعناية بهم" (حنا الخضري، تاريخ الفكر المسيحي، ج2، 626.) لكن كانت تلك

الخطوة بداية لتدخل الأباطرة الرومان في مسار وقرارات المجامع الكنسية لاحقًا، وبالذات مع أبناء قسطنطين بعد موته.

2. كان عدد الأساقفة الحاضرين غير معروف على وجه التحديد. يقول يوسابيوس إن أكثر من 250 أسقفًا كانوا حاضرين، لكن أثناسيوس ومؤرخي الكنيسة في القرن الخامس يقولون إن العدد كان أكثر من 300، وبالتحديد 318 أسقفًا. ومن المرجح أن استخدام رقم 318 هنا كان للربط بعدد المصاحبين لإبراهيم في تكوين 14: 14، وقد ربط بعض آباء الكنيسة من المدرسة الرمزية بين الرقم 318 وعمل المسيح على الصليب (انظر رسالة برنابا). على أية حال، كان هناك أيضًا حاشية مصاحبة لكل أسقف، بالإضافة إلى الإمبراطور وحاشيته، مما قد يجعل عدد الحاضرين حوالي 2000 شخص. وهو عدد كبير جدًا ويبين اختلاف نيقية عن اي مجمع سابق (David M. Gwynn، *Reconstructing the Council of Nicaea, 93*).

3. بجانب الجدال حول طبيعة أقنوم الابن، ناقش المجمع عدة أمور، وأهمها توقيت الاحتفال بعيد القيامة، والانشقاق المليتي داخل كنيسة الإسكندرية. كما كان هناك 20 قانونًا ملحقًا بإقرار إيمان نيقية، وكانت

معظم هذه القوانين تهدف إلى تنظيم الكنيسة في ضوء الوضع الجديد بنهاية الاضطهاد. ولصغر مساحة هذه المقالة، سيكون التركيز فقط على إقرار إيمان نيقية وتبعاته بعد انتهاء المجمع.

4. كان أثناسيوس حاضرًا للمجمع بصفته سكرتيرًا للبابا ألكسندروس، بينما توجد بعض الإشارات إلى أن أثناسيوس كان مشاركًا فعالًا في المجمع نفسه. يعتقد كثير من الدارسين أنه من غير المرجح أن يكون أثناسيوس الشاب، ذو السبعة والعشرين عامًا، قد حظي بفرصة الكلام داخل المجمع، لكن على أي حال، كان لوجود أثناسيوس ومقابلته للأساقفة من جميع أنحاء الإمبراطورية دور هام في تجهيزه لاهوتيًا وسياسيًا لتكملة مسيرة نيقية والدفاع عنها.

قانون الإيمان النيقاوي

بعد نقاشات لاهوتية استغرقت عدة أسابيع، أصدر المجمع إقرارًا للإيمان يُعرف بـ"قانون الإيمان النيقاوي". وينص الإقرار على الآتي:

"بالحقيقة نؤمن بإله واحد، الله الآب، ضابط الكل، خالق السماء والأرض، ما يُرى وما لا يُرى. نؤمن برب واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود

غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء. هذا الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء وتجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء. تأنّس وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطي. تألم وقُبِر وقام من بين الأموات في اليوم الثالث كما في الكتب، وصعد إلى السماوات، وجلس عن يمين أبيه، وأيضًا يأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات، الذي ليس لملكه انقضاء. نعم، نؤمن بالروح القدس، وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية، ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا، وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي. آمين".

كما يلاحظ القارئ أن الإقرار، رغم كونه ثالوثيًّا من حيث إقراره بإيمان الكنيسة بالآب والابن والروح القدس، إلا أنه يركز على شخص أقنوم الابن بشكل أساسي. حتى إن الجزء الخاص بالروح القدس في الإقرار يكتفي بالقول: "نؤمن بالروح القدس"، وسيتم تعديله في مجمع القسطنطينية عام 381م. وبالتالي، يركّز الإقرار على علاقة الله الابن بالله الآب؛ فالابن (المولود من الآب قبل كل الدهور) هو مولود غير مخلوق لتأكيد تفرده عن باقي الخليقة. كما أن طبيعته هي نفس طبيعة الآب، فهو نور من نور، إله حق من إله حق. وأخيرًا، لضمان تأكيد هذه الفكرة، يصف الإقرار الابن بأنه مساوٍ للآب في الجوهر، والكلمة اليونانية المُستَخدَمة هنا هي ὁμοούσιον (هوموأوسيوس) والتي تعني "نفس الطبيعة" أو "نفس الجوهر". وكان الهدف الرئيسي من

استخدام هذا المصطلح هو ضمان إدانة أريوس وأتباعه. Lewis Ayres, *Nicaea and Its Legacy: An Approach to Fourth-Century Trinitarian Theology*, 90.

ما بعد نيقية

كان إقرار إيمان نيقية حاسمًا في إدانة أريوس وعزله، وفي تثبيت لاهوت كنيسة الإسكندرية. وقد يتوقع القارئ أن الجدل قد انتهى عند هذه اللحظة، لكن التاريخ يخبرنا أن الفريق الأريوسي، بقيادة يوسابيوس النيقوميدي، نجح في إقناع الإمبراطور قسطنطين بقبول أريوس مرة أخرى. أما الإمبراطور قنسطانطيوس، ابن قسطنطين، فكان أريوسيّ الإيمان، واستعمل سلطته لتغيير صيغة إقرار إيمان نيقية، ولإجبار جميع الأساقفة في الشرق على القبول بالصيغة الجديدة، حتى إن القديس جيروم قال متعجبًا: "لقد استيقظ العالم بأسره وتعجّب حين وجد نفسه أريوسيًّا". وقد واجه البابا أثناسيوس الرسولي، خليفة البابا ألكسندروس، حربًا شديدة بسبب تمسكه بإيمان نيقية، لا سيما على يد الإمبراطور قنسطانطيوس الثاني، مما أدى إلى نفيه من كرسيه في الإسكندرية خمس مرات. وكانت معظم حياة أثناسيوس مكرَّسة لكتابة الدفاع عن إقرار إيمان نيقية وتفنيد آراء أتباع أريوس.

لكن المشكلة الأكبر بعد نيقية لم تكن مع الأريوسيين، بل كانت بين أتباع نيقية أنفسهم (Behr, 9). فقد كان هناك تيار لاهوتي يرفض لاهوت أريوس لكنه غير موافق على استخدام تعبير "مساوٍ للآب في

الجوهر"، ومنهم يوسابيوس القيصري على سبيل المثال. وكان التحديان الكبيران لتعبير "من نفس الجوهر" اللذان سمحا باستمرار الجدل حول علاقة الابن بالآب لمدة نصف قرن تقريبًا وحتى مجمع القسطنطينية هما:

أولًا: تحدٍّ كتابي

مصطلح "من نفس جوهر الآب" غير موجود حرفيًّا في الكتاب المقدس، ولذلك حاول البعض رفضه باعتباره غريبًا عن النصوص المقدسة. يوضح أثناسيوس في دفاعه عن هذا المصطلح أن الآباء في مجمع نيقية حاولوا الاقتصار على المصطلحات الموجودة في الكتاب المقدس، لكنهم لم يستطيعوا إيجاد تعبيرات تبيّن خطأ العقيدة الأريوسية بشكل كافٍ. ومع ذلك، يؤكد أثناسيوس أنه حتى وإن لم تَرِد هذه التعابير بنصها الحرفي في الأسفار المقدسة، فإنها تحوي المعنى نفسه الموجود في تلك الأسفار، وبالتعبير عن هذا المعنى فإنها تنقله إلى الذين لم تتأثر قدرتهم على الإصغاء للعقيدة الصحيحة (Athanasius, De decretis, 21). ويشرح توماس ف. تورانس الفكرة نفسها قائلًا:

"لهذا السبب عينه، لم يستطع لاهوتيو الكنيسة أن يظلوا صامتين، بل في خوف ورعدة وصلاة إلى الله، وجب عليهم أن يسعوا للتعبير –على قدر ما تسمح به إمكانيات اللغة البشرية الضعيفة– عن "الحق" الإلهي الذي ترشدهم الكتب المقدسة إليه، وحتى ولو كان ذلك لمجرّد مقاومة الأثر المدمّر لدخول أنماط من الفكر البشري –التعسفي والاعتباطي– غير المتدين في طريقة "معرفة" الله. هذا بالتحديد كان الموقف الذي وجد آباء نيقية أنفسهم فيه عندما اضطروا لاستخدام مصطلح "هوموأوسيوس" (ὁμοούσιος) من خارج الكتاب المقدس.

ليعطوا تعبيرًا واضحًا ولا لبس فيه عن "الحقيقة" الكتابية والإنجيلية". (توماس ف. تورانس، الإيمان بالثالوث، ص 35).

ثانيا: تحدٍّ لاهوتي

على الرغم من أن الهدف من استخدام تعبير هوموأوسيوس (ὁμοούσιος) كان التأكيد على ألوهية أقنوم الابن ومساواته لأقنوم الآب، إلا أن هذا التعبير بدا للكثيرين إشكاليًّا. فقد فهمه بعضهم على أنه يشير إلى وجود كائنين إلهيين، مما يتعارض مع عقيدة التوحيد، بينما فهمه آخرون على أنه ينفي أي تمايز بين الآب والابن، وهو ما قاد إلى الهرطقة السابيلية التي نادى بها سابليوس، والتي تقول إن الله الواحد ظهر في ثلاثة أشكال مختلفة: الآب في زمن الخلق، والابن في زمن التجسد، والروح القدس بعد القيامة. ويشير لويس إيريس إلى أن ديونيسيوس الإسكندري قد رفض هذا المصطلح ذاته في سياق حملته ضد بعض الأتباع المحليين للسابيليانية ليشدد على التمييز بين الآب والابن. (Lewis Ayres, 94).

إضافة إلى ذلك، رأى بعضٌ أن المصطلح ذاته يحمل طابعًا ماديًّا عند الحديث عن جوهر الله، وهو أمر مرفوض لاهوتيًّا، خاصة وأن التعبير سبق أن أُدين في سياق إدانة تعليم بولس السميساطي (Lewis Ayres, 94) . فعلى سبيل المثال، يظهر يوسابيوس القيصري في رسالته إلى كنيسته في قيصرية أنه عارض

هذا التعبير حتى اللحظة الأخيرة في مجمع نيقية، ولم يوافق عليه إلا بعد أن تأكد من أن المقصود به ليس أن الابن "جزء" من الآب؛ لأن ذلك يعني أن الجوهر الإلهي مركب، مادي، وقابل للانقسام، وهو ما نفاه يوسابيوس بقوله: "ليس كما في الأجسام، ولا كما في الكائنات الفانية، إذ لا ينقسم الجوهر الإلهي بهذه الصورة". وقد أوضح يوسابيوس أنه وافق في النهاية على استخدام المصطلح رغبةً في تحقيق السلام والوحدة داخل الكنيسة (خطاب أوسابيوس القيصري الي كنيسته، 7-11).

وهكذا كانت السنوات التالية لمجمع نيقية مليئة بالجدل اللاهوتي، وأحيانًا السياسي. يصف الأب جون بيير السنوات العشرين التي تلت المجمع بأنها كانت "معركة في الظلام"؛ إذ لم يكن أي طرف يفهم ما يقصده الطرف الآخر (John Behr, 69). ويصف لويس إيريس مصطلحات نيقية بأنها "نافذة على الارتباك والتعقيد في الجدالات اللاهوتية في أوائل القرن الرابع". (Lewis Ayres, 92). ولهذا عمل أثناسيوس والآباء الكبادوكيون على شرح وتطوير هذه المصطلحات حتى استقرار الأمر في مجمع القسطنطينية عام 381م.

خاتمة

عنوان هذا المقال هو "**مجمع نيقية: نهاية أم بداية؟**"، وهو مُقتَبَسٌ من مقال للاهوتي كارل رانر بعنوان "**خلقيدونية: نهاية أم بداية؟**". في مقاله، يوضح رانر أنه بالرغم من أن صياغة إقرار الإيمان تمثل نهاية

للجدال وانتصارًا يمنحنا إيمانًا واضحًا ويمنح الكنيسة أمانًا وطريقًا أوضح لشرح الإيمان، إلا أنها في الوقت ذاته يجب أن تكون نقطة بداية لمزيد من الأسئلة، ومزيد من التأمل والنقاش حول إعلان الله عن نفسه. ولأن الله أعظم من أن ندركه بذواتنا، فإن رحلة الأسئلة التي تقود إلى إدراك أعمق لسر الله لا يمكن أن تتوقف.

(Rahner, Karl. *Chalcedon Ende oder Anfang?,* 149–200)

إن هدف هذه الدراسة ليس مجرد عرض تاريخي لأحداث الماضي يأخذ فيه القارئ دور المشاهد السلبي، بل الهدف أن ندرك أن مجمع نيقية هو فصل من قصة متعددة الفصول. تحاول الكنيسة دائمًا أن تتأمل وتعبّر عن سر المسيح، السر العظيم الذي لا لاستقصاء عظمته. وقد أجاب إقرار إيمان نيقية عن بعض الأسئلة، لكنه في الوقت نفسه فتح الباب لمزيدٍ منها، وهكذا استمرت رحلة اكتشاف سر المسيح. لذلك، ننظر إلى إقرار إيمان نيقية اليوم طامحين أن نكون نحن أيضًا جزءًا من هذه القصة، نطرح أسئلتنا ونجتهد في لاهوتنا حتى يكشف لنا الله عن سر المسيح بطريقة أعمق، حتى نقول مع الرسول بولس: "لَكِنِّي أَسْعَى لَعَلِّي أُدْرِكُ الَّذِي لأَجْلِهِ أَدْرَكَنِي أَيْضًا الْمَسِيحُ يَسُوعُ" (فيلبي 3: 13).

المراجع المستخدمة

المصادر العربية:

1. أثناسيوس، **المقالات الثلاثة ضد الأريوسيين**، ترجمة: نصحي عبد الشهيد وآخرون، القاهرة: مؤسسة القديس أنطونيوس، 2015.

2. أريوس، **خطاب إلى البابا ألكسندروس**.

3. أريوس، **خطاب إلى يوسابيوس أسقف نيقوميديا**.

4. الخضري، حنا. **تاريخ الفكر المسيحي**، ج1، القاهرة: دار الثقافة، 1981.

5. تورانس، توماس. **الإيمان بالثالوث: الفكر اللاهوتي الكتابي للكنيسة الجامعة في القرون الأولى**، ترجمة: عماد موريس اسكندر، القاهرة: مكتبة بناريون، 2007.

6. قنسطنطين، **خطاب إلى ألكسندروس وأريوس**.

(النص اليوناني والترجمة الانجليزية للخطابات المستخدمة هنا موجودة على

(https://www.fourthcentury.com/documents-of-the-early-arian-controversy/

المصادر الأجنبية:

1. Anatolios, Khaled. *Retrieving Nicaea: The Development and Meaning of Trinitarian Doctrine*. Grand Rapids, MI: Baker Academic, 2011.

2. Athanasius of Alexandria. *A Defense of the Nicene Definition (De Decretis)*. Translated by Blessed John Henry Newman; revised by Archibald Robertson. Grand Rapids, MI: Assumption Press, 2014.

3. Ayres, Lewis. *Nicaea and Its Legacy: An Approach to Fourth-Century Trinitarian Theology*. Oxford: Oxford University Press, 2004.

4. Behr, John. *The Nicene Faith: Formation of Christian Theology, Volume 2*. Crestwood, NY: St. Vladimir's Seminary Press, 2004.

5. .Eusebius of Caesarea*Life of Constantine*. Translated and with introduction and commentary by Averil Cameron and Stuart G. Hall. Oxford: Clarendon Press, 1999.

6. “ .Gwynn, David MReconstructing the Council of Nicaea. ”In *The Cambridge Companion to the Council of Nicaea*, edited by Young Richard Kim, 90–110. Cambridge: Cambridge University Press, 2021.

7. **Rahner, Karl**. *Theological Investigations, Volume 1: God, Christ, Mary, and Grace*. Translated by Cornelius Ernst. London: Darton, Longman & Todd, 1961.

8. Williams, Frank. The Panarion of Epiphanius of Salamis, Books II and III: De Fide. Leiden: Brill, 2012.

9. .Williams, Rowan*Arius: Heresy and Tradition*. Grand Rapids, MI: Wm. B. Eerdmans Publishing Co., 2002.

10. Young, Frances M. *Exegesis and Theology in Early Christianity*. Farnham (Surrey) / Boca Raton, FL: Routledge (Ashgate Variorum), 2012.